في الأدب العربي

ابن خلدون في مصر

للأستاذ محمد عبد الله عنان

١

ترددت خلال العام الماضي دعوة لإحياء ذكرى المؤرخ الفيلسوف ابن خلدون لمناسبة انقضاء ستمائة عام على مولده[١]. فاستجابت دوائر التفكير والأدب في جميع البلاد العربية لهذه الدعوة الكريمة، وأقيمت عدة حفلات علمية للاشادة بذكره وخالد آثاره، ولاسيما في تونس مسقط رأسه ومطلع مجده، وفي مصر مقام شيخوخته ومثوى رفاته؛ وحفلت المجلات والصحف حينا بمختلف البحوث عنه. ولكن ناحية من حياة المفكر الكبير لم تلق كبير عناية. تلك هي حقبة مقامه بمصر، وصلته بها وأثره فيها؛ وهذا ما نريد أن نعنى به في هذا الفصل تحية لذكرى المؤرخ والفيلسوف الاجتماعي الأشهر

غادر ولي الدين عبد الرحمن بن خلدون تونس في منتصف شعبان سنة ٧٨٤ هـ (اكتوبر سنة ١٣٨٢ م)، فوصل ثغر الاسكندرية في يوم عيد الفطر بعد رحلة بحرية شاقة. ويقول ابن خلدون في تعريفه عن نفسه: انه قدم الى مصر ليلتظم منها في ركب الحاج، وانه لبث بالاسكندرية شهرا يهيء العدة لذلك، ولكن لم يتح له يومئذ أن يحقق هذه الغاية. فقصد الى القاهرة[٢] وكان قضاء الفريضة حجته الظاهرة في مغادرة تونس. واستئذان سلطانها أبي العباس في السفر الى المشرق. ولكن ما يقصه ابن خلدون من الحوادث قبل ذلك يدل على أن مغادرته لتونس كانت فرارا؛ وكانت خشية من بطش سلطانها، وغدر بلاطها. وكان ابن خلدون قد انفق نحو ربع قرن في خوض غمار السياسة ودسائس القصور، وتقلب في خدمة معظم سلاطين المغرب والاندلس. وذاق نعم الرياسة ومحن النقمة مرارا، وعانى مرارة السجن والأسر وخطر الهلاك غير مرة. ولم تهدأ نفسه المضطرمة بتلهف المغامرة والنضال والدنيا الان كهولته، يوم أعيته الحيل، وعلته الأرزاء والمحن، وفقد عطف معظم القصور التي تقلب فيها، وأضحى يتبرم بقضاء تلك المهام السلطانية التي كان يتخذ قضاءها وسيلة للذة وذو الرياسة. عندئذ عافت نفسه غمر السياسة ودسائس القصور، فارتد في أواخر سنة ٧٧٦ هـ، الى قلعة ناثية منعزلة بناحية أولاد عريف بالمغرب الأوسط؛ وهنالك انقطع للبحث والتأليف مدى أربعة أعوام وأخذ في كتابة تاريخه الضخم. وأنجز منه مقدمته الشهيرة وعدة مجلدات أخرى. ثم رأى أن يقصد الى تونس ليستكمل مراجعه في مكاتبها. وكانت بينه وبين سلطانها وحشة: فاستأمنه وحصل على رضائه؛ وغادر مقامه الناثي الى تونس فوصل اليها في شعبان سنة ٧٨٠. وهنالك اشتغل باتمام مؤلفه بتكليف السلطان ورعايته حتى أتمه ورفعه الى السلطان، ومدحه يومئذ بقصيدة طويلة أوردها في «تعريفه». وكان ذلك لنحو عامين من مقدمه الى تونس (٧٨٢ - ١٣٨٠ م)[١]

وهنا ألفى ابن خلدون نفسه في معترك جديد من الدسائس، وقصده رجال البطانة بالكيد والسعاية لدى السلطان. وأغروه أكثر من مرة باستصحابه الى غزواته ومهامه الخطرة. فخشي ابن خلدون عاقبة السعاية. ولم يجد في تونس ما كان ينشده من هدوء وسكينة. فانتهز فرصة وجود السلطان في تونس، ووجود سفينة مصرية في مرساها تقصد الاسكندرية. فألح على السلطان في الاذن له بالسفر لقضاء الحج. وركب البحر بمفرده تاركا اسرته في تونس. فوصل الاسكندرية كما قدمنا في يوم عيد الفطر سنة ٧٨٤[٢]

كان مقدم ابن خلدون الى مصر اذاً، نوعا من الفرار وخيفة البطش والمحنة. ولم يكن قضاء الفريضة قصده المباشر، بل كان حجته الظاهرة. وكان يرجو بلا ريب أن يقضي بقية أيامه بمصر في هدوء

(١) كان مولد ابن خلدون في رمضان سنة ٧٣٢ هـ — مايو سنة ١٣٣٢ م

(٢) «التعريف بابن خلدون»؛ وهي ترجمة المؤرخ لنفسه في ذيل تاريخه — راجع «كتاب المصري» (تاريخ ابن خلدون) ج ٧ ص ٤٥٩ ويشغل هذا التعريف من ص ٣٣٩ الى ٤٦٢ — ويشار اليه بعد ذلك بعد

(١) كتابنا المصري ج ٧ ص ٤٤٤ وما بعدها.

(٢) كتاب المصري ج ٧ ص ٤٥١

ودعة ، وأن ينعم بذلك الاستقرار الذى لم تهيئه له بالمغرب حياة النضال والمغامرة . وكان يومئذ فى الثانية والخمسين من عمره ، ولكنه كان وافر النشاط والقوة ، يتطلع دائما الى مراتب الفوز والعزة ؛ وكانت القاهرة يومئذ موئل التفكير الاسلامى فى المشرق والمغرب ، وللاطها شهرة واسعة فى حماية العلوم والآداب . فكان يرجو أن ينال قسطه من هذه الرعاية والحماية . ووصل ابن خلدون الى القاهرة فى أول ذى القعدة سنة ٨٤ — نوفمبر سنة ١٣٨٢ ؛ فبهرته ضخامتها وعظمتها وسناؤها كما بهرت سلفه ومواطنه الرحالة ابن بطوطة قبل ذلك بنصف قرن ، وكما بهرت على كر العصور كل من رآها من أعلام المشرق والمغرب . ولا غرو فان المؤرخ لم ير بالمغرب سوى تلك المدن الصغيرة المتواضعة ، ولم ير بالأندلس حيث قضى ردحا من الزمن ، مدينة فى عظمة القاهرة وروعتها . وهو يقف للقاهرة أثر مقدمه ويحييها بحماسة تنم عن عميق إعجابه وسحره وتأثره ، ويصفها فى تلك الفقرة الرنانة : « فرأيت حاضرة الدنيا ، وبستان العالم ، ومحشر الأمم ، ومدرج الذر من البشر ، وايوان الاسلام ، وكرسى الملك : تلوح القصور والأوابن فى جوه ، وتزهو الخوانق والمدارس والكواكب بآفاقه ، وتضىء البدور والكواكب من علمائه ؛ قد مثل بشاطىء النيل نهر ، ومدفع مياه السماء ، يسقيه العلل والنهل سيحه ، ويجبى اليهم الثمرات والخيرات بحجه ؛ ومررت فى سكك المدينة تغص بزحام المارة ، وأسواقها تزخر بالنعم . . . »

ولم يكن ابن خلدون نكرة فى مصر . فقد كان المجتمع القاهرى يعرف الكثير عن شخصه وسيرته ؛ وكانت نسخ من مؤلفه الضخم ولاسيما مقدمته الشهيرة قد ذاعت قبل ذلك بقليل فى مصر وغيرها من بلدان المشرق . وأبحت دوائر العلم والتفكير والأدب بطرافة مقدمته وجدتها وروعة مباحثها . فلم يكد يحل بالقاهرة حتى أقبل عليه العلماء والطلاب من كل صوب . يقول ابن خلدون فى كبرياء وتواضع معا : « واتصل على طلبة العلم بها يلتمسون الأفادة مع قلة البضاعة . ولم يوسعونى عذرا » [٢] وهذا ماتشير اليه التراجم المصرية : فيقول ابو المحاسن بن تغرى بردى فى ترجمته لابن خلدون : « واستوطن القاهرة وتصدر للأقراء بالجامع الأزهر مدة ، وأشتغل وأفاد » [٣] ويقول السخاوى : « تلقاه أهلها (أى أهل مصر) وأكرموه وأكثروا ملازمته والتردد عليه . بل تصدر للأقراء بالجامع الأزهر مدة . . . » [١] . جلس ابن خلدون للتدريس بالأزهر ، والظاهر أنه كان يدرس الحديث والفقه المالكى ، ويشرح نظرياته فى العمران والعصبية وأسس الملك ونشأة الدول ، وغيرها مما عرض اليه فى مقدمته . وكانت هذه الدروس خير أعلان عن غزير علمه ، وشائق بحثه ، وساحر بيانه . وكان ابن خلدون محدثا ، بارعا رائع المحاضرة ، يخلب اللب سامعيه بعبقريته وذلاقته . وهذا مايحدثنا به جماعة من أعلام التفكير والأدب المصريين الذى سمعوه أو درسوا عليه : ومنهم المؤرخ الكبير تقى الدين المقريزى الذى سمعه ودرس عليه فقه [٢] وكذا الحافظ ابن حجر : فقد درس عليه وانتفع بعلمه ووصفه بقوله : « وكان لسنا ، فصيحا ، حسن الترسل وسط النظم ؛ مع معرفة تامة بالأمور نحصوصا متعلقات المملكة » [٣] ونقل السخاوى عن الجمال البشبيشى انه « كان فصيحا مفوها جميل الصورة » ، وعن الركراكى « ان محاضرته اليها المنتهى » [٤] .

وهكذا استطاع ابن خلدون لأول مقدمه أن يخلب اللب المجتمع القاهرى ، وأن يستثير اعجابه وتقديره ؛ ولكن صفاء الأفق من حوله لم يدم طويلا كما سنرى . وفى اثناء ذلك اتصل ابن خلدون بأمير من أمراء البلاط يدعى علاء الدين الطنبغا الجوالى [٥] فشمله برعايته ، وساعده على التقرب من السلطان والاتصال به . وكان السلطان يومئذ الظاهر برقوق ؛ وقد ولى الملك قبيل مقدم ابن خلدون بأيام قلائل (أواخر رمضان سنة ٧٨٤) ، فأكرم وفادة المؤرخ واهتم بأمره ؛ يقول ابن خلدون : « فأبر مقامى ، وآنس الغربة ، ووفر الجراية من صدقاته ، شأنه مع أهل العلم » وبذا تحققت أمنية المؤرخ من الاستقرار والمقام الهادىء فى ظل أمير يحميه ويكفل رزقه ، ولم يمض قليل على ذلك حتى خلا منصب للتدريس بالمدرسة القمحية ، بجوار جامع عمرو وهى من مدارس المالكية فيه السلطان فيه . ويعنى ابن خلدون فى تعريفه بوصف مجلسه الأول فى هذا المعهد :

« البقية على صفحة ٢١ »

(١) وفد ابن بطوطة على القاهرة سنة ٧٢٦ هـ — ١٣٢٦م فى عهد الناصر بن قلاوون

(٢) كتاب السلوك ج ٢ ص ٤٥٢

(٣) كتاب المنهل الصافى لابن تغرى بردى — نسخة دار الكتب المخطوطة رقم ١١٣ تاريخ — ج ٢ ص ٣٠٠

(١) كتاب الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع عشر السخاوى — نسخة دار الكتب الاستوغرافية رقم ٦٧٥ تاريخ المجلد الثانى من القسم الثانى — ص ٣٦٧

(٢) تعود الى تقدير المقريزى لشيخه ابن خلدون فيما بعد .

(٣) كتاب أنباء الغمر فى أنباء العمر لابن حجر العسقلانى (نسخة دار الكتب المخطوطة رقم ٢٤٢٩ تاريخ) ج ١ ص ٧١١

(٤) الضوء اللامع — المجلد الثانى من القسم الثانى — ص ٣٦٩

(٥) هكذا اسمه فى « المنهل الصافى » ولكن السخاوى يسميه « الطنبغا الجوالى »